في مراتب السلوك

إعلم أنّ لأهل السلوك مراتبَ ومدارجَ لا تُحصى. ونحن نذكر بعض المراتب على النحو الكلّيّ، وأمّا الإحاطة بجميع الجوانب وإحصاء جميع المراتب، فخارجٌ عن عهدتي وفوق طاقتي، فإنّ «الطُرُقَ إلى الله بِعَدَد أنفاس الخلائق».

قال الصادق عليه السلام: «الإيمان درجات وطبقات ومنازل، فمنه التامّ المُنتهي تمامُه، ومنه الناقص البَيِّنُ نُقصانُه، ومنه الراجح الزائدُ رَجحانُه». وقال الباقر عليه السلام: «إنّ المؤمنين على منازل، منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربَع، ومنهم على خمس، ومنهم على ستّ، ومنهم على سبع، فلو ذهبتَ تحمل على صاحب الواحدة اثنتين لم يَقوَ، وعلى صاحب الإثنتين ثلاثاً لم يقوَ»، وساق الحديث ثم قال: «.. وعلى هذه الدرجات».

فمن تلك المراتب مرتبة العِلم، وهي أن يثبت بالسلوك العلميّ والبرهان الفلسفيّ ذِلّة العبوديّة وعِزّة الربوبيّة، وهذا لبٌّ من لُباب المعارف. فقد اتّضح في العلوم العالية والحكمة المُتعالية أنّ جميعَ دار التحقّق وتمامَ دائرة الوجود إنّما هو صرف الرَّبْط والتعلّق، ومحضُ الفقر والفاقة، أمّا العِزّة والمُلك والسلطان فمُختصّةٌ بذاته المقدّسة الكبريائيّة، وليس لأحدٍ من حظوظ العِزّة والكبرياء نصيب.

وذُلُّ العبوديّة والفقر ثابتٌ في ناصيتِهم، وفي حاقّ حقيقتهم، وإنّما حقيقة العرفان والشهود ونتيجة الرياضة والسلوك هي رفعُ الحِجاب عن وجه الحقيقة، ورؤيةُ ذُلّ العبوديّة وأصل الفقر، والتدلّي في نفْسِه، وفي جميع الموجودات.

ولعلّ في الدعاء المنسوب إلى سيّد الكائنات: «أللّهمّ أرِني الأشياءَ كما هي»، إشارةً إلى هذا المقام بمعنى أنّه صلى الله عليه وآله سأل الله سبحانه أن يُشهده ذلّةَ العبوديّة المُستلزِمة لشهود عِزّ الربوبيّة.

فسالك طريق الحقيقة ومسافر سبيل العبوديّة، إذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلميّ، وركب مركبَ السير الفكريّ، يقعُ في حجاب العِلم، ويصل إلى المقام الأول للإنسانيّة، ولكنّ هذا الحِجاب من الحُجُب الغليظة. وقد قالوا: «العِلم هو الحجاب الأكبر»، ولا بدّ ألا يبقى في هذا الحجاب وأن يخرِقَه.

ولعلّه إذا اقتنع بهذا المقام، وسجن قلبه في هذا القَيد، يقعُ في الاستدراج. والاستدراجُ في هذا المقام هو أن يشتغل بالتفريعات العلميّة الكثيرة، ويحوّل فكره في هذا الميدان، فيُقيم لهذا المقصدِ براهين كثيرة، فيُحرَمَ من المنازل الأُخَر، ويتعلّقَ قلبُه بهذا المقام، ويغفلَ عن النتيجة المطلوبة وهي الوصول إلى الفناء في الله، ويصرفَ عمرَه في حجاب البرهان وشُعَبِه، وكلّما كثُرت الفروع يصير الحِجاب والاحتجابُ عن الحقيقة أكثر.

فللسالك ألّا يغترّ بمكايد الشيطان في هذا المقام، ولا يحتجِبَ بكثرة العلم وغزارته، ولا بقوّة البرهان عن الحقّ والحقيقة، ويتأخّر عن السير في الطلب، بل يشمّر الذَّيل، ولا يغفل عن الجدّ في طلب المطلوب الحقيقيّ، حتى ينال المقامَ الثاني.

وهو أنّ كلّ ما أدْرَكَه عقلُه بقوّة البرهان والسلوك العلميّ يكتبُه بقلم العقل على صحيفة قلبه كي يوصل حقيقة ذُلّ العبودية وعِزّ الربوبيّة إلى القلب، ويفرغ من القيود والحُجب العلميّة.

من كتاب «الآداب المعنوية للصلاة» للإمام الخميني قدس سره